القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

فداء إسماعيل عليه السلام

٧

عبد الحميد جودة السحار

القصص الديني

الحلقة الأولى

قصص الأنبياء

فداء إسمعيل

تأليف

عبد الحميد جودة السحار

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

١

تزوج سيدُنا إبراهيمُ من السيدة سارَّة ، وعاش معها ، حتى كبِرا فى السِّن ، ولم يكن لهُما ولد .

وكان للسَّيدة سارة جاريةٌ تُسمى هاجَر . فقالت لزَوجِها : ها نحنُ قد كبِرنا فى السِّن ، وليس لنا أولاد ، لأنّنى أنا عقيمٌ لا ألِد ، فتَزوَّج هذه الجارية ، لعلَّ اللّه يرزُقُكَ منها بغلامٍ نفرحُ به فى حياتنا .

قال لها إبراهيم : لا يا سارة . إننى أخشى أن تَغارِى من هاجَر إذا هى ولَدَت وأنتِ لا أولادَ لك . ولو كانَ اللّه يُريدُ أن يُعطيَنا أولادا لأعطانا .

قالت سارة : لا لا يا إبراهيم . إننى لن أغار بل سأفرَحُ إذا وَلدت هاجر ، وأعطانا اللّه غلاما نفرحُ به جميعا .

عنـد ذلـك تـزوَّج إبراهيـمُ مـن هـاجر ، فحمَلـت بإسماعيل ، ولم يكن إبراهيم يعلم أنها حملت .

٢

وفى ليلةٍ كان إبراهيمُ جالسًا أمامَ خيمَتِه ، وزوجُه سارةُ فى داخلِها ، وإذا بثلاثةِ رجالٍ شبان يقولون :

ـ السلامُ علَيكَ يا إبراهيم .

قال : وعليكم السلام . تفضَّلوا .

وأمَرَ إبراهيمُ أحَدَ أتباعـه ، فذَبَـح عِجْلا سَـمِينا ؛ ليقدِّم لهم منه طعاما ، ويعملَ لضيوفِه وليمة .

ولَّما حضر الطعامُ قدَّمَ إليهم إبراهيـم فلـم يـأكلوا ؛ فتخـوَّف إبراهيـمُ منهـم وظَنَّهـم رجـالا شـرِّيرين أو لصوصا ، يقصدونَ قتلَه أو سرِقَتَه ، ولذلك لم يأكلوا من طعامِه .

فقال : مَن أنتم ؟

قالوا : نحنُ ملائِكة ، وقد جِئنا لنُبَشِّرَك بغلام .

قال : لا تسخَروا منى ولا تستهزئوا بى . كيف تبشرونَنى بغلامٍ وأنا رجلٌ شيخ .

قالوا : إنَّ اللَّه يُريد .

وسمعت السيدة سارَّة ذلك فضحكت واستغرَبت .

فقال الملائكة لها : وأنتِ كذلك ستلدين ولدا اسمه إسحاق ، الذى سيلِدُ يعقوب . فلَطَمت وجهها وقالت :

﴿ يا ويْلَتا أَأَلِدُ وأنا عجوز ، وهذا بَعلى شَيْخا ؟ ﴾

قال الملائكة : وهل تستكثرينَ هذا على اللَّه ؟

قال إبراهيم : والآن إلى أين أنتم ذاهبون ؟

قالوا : إنَّا ذاهبونَ إلى قَريةِ ابنِ أخيكَ لوط ، لنُهلِكَ قومَه الكفَّار ، فلا ينجُو إلا هوَ والناسُ

الطيبون ، أما بقيةُ قومه الذين يعملونَ أعمالا رديئة ، فإنّهم سيُهلَكون جميعا ؛ وإنَّ مَوعِدَهم الصُّبحُ ؛ أَلَيسَ الصُّبْح بقريب ؟

٣

بعد عِـدَّةِ أشْـهُرٍ ولـدت هـاجرُ ولَـدًا ، سمَّـاه أبـوه إسمـاعيل . وكـانت سـارة لم تلِـدْ إلى هـذا الوقـت ؛ فَفرِح إبراهيمُ بإسماعيلَ فرحا عظيما ؛ وأخَذَه وذهَب لُيرِيَه لزوجتهِ سارَّة . ولكنَّ سارَّة غارَتْ غَيرةً شديدةً حينَ رأتْ الطفلَ ؛ وقالت لإبراهيم : إمَّا أنا فـى هـذا البيت ، وإما هاجَرُ ووَلَدُها . اذهَبْ بهما بعيدا عنى ، فأنا لا أُطيقُ أن أنظُرَ إليه ، ولا إلى أمِّه الجارية .

وحاوَلَ إبراهيمُ أن يُرضِيَها فلم تقبَلْ فتوكَّـلَ علـى اللّه ، وأخـذَ هـاجَرَ وابْنهَـا إسمـاعيل ، وذهَـب بهمـا

بعيدا فى الصحراء ، وصنع لهما خَيمةً قُرْبَ المكانِ الذى فيه الكعبةُ الآن .

وقبلَ أن يترُكَهما فى الخَيمة ويمشى ، راحَ يُصلِّى لله ويدعوه ويقول :

﴿ ربَّنا إنِّى أسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتى بوادٍ غيرِ ذى زَرْعٍ عندَ بيتِكَ المُحَرَّم ؛ رَبَّنا لِيُقيموا الصَّلاةَ ، فاجعَلْ أفئِدَةً من الناسِ تَهْوى إليهم ، وارزقهم من الثَّمراتِ لعلَّهم يَشكرون ﴾ .

٤

وعادَ إبراهيمُ إلى بيته ، وبعدَ فترةٍ ولَدَت سارَّةُ ولَدًا سمَّاهُ أبوهُ إسحاق ، وفرح فرحًا عظيما ، ورضِيَت سارَّةَ واطمأنَّت .

أما هاجَرُ فَعاشَتْ أيامًا مع طِفلِها إسماعيل ، حتى

نَفِدَ الماءُ الذى تركَهُ لهما إبراهيم ، وعطِشَتْ فجفَّ لبَنُها ، وعطِش الولدُ وجاع ، ولكنْ أينَ الماءُ فى هذه الصحراء ؟

تَركت هاجَرُ طفلَها فى الخَيْمة ، وخرجَتْ تبحثُ عن الماءِ فى الصحراء ؛ فلم تجِدْ للماءِ أثرا ، وكانت الشمسُ ساخِنةً والجوُّ مُحْرِقا ، وكلّما فكَّرَت فى أن تعودَ إلى الخَيمة قالت : وإسماعيل ؟ كيف أرجع له من غير ماء ، فيموتَ من العَطشِ وهو طفلٌ صغير .

وراحت تسعى بين جبل الصفا وجبل المروة سبع مرات ، وهى تبحثُ عن الماء فلا تجده .

وأخيرًا جفَّ ريقُها ، وانعَقَدَ لسانُها من العطش ، فعادَت وهى مُتْعَبَة ، تسيرُ قليلا وتقَعُ على وجهِها فى الرمال ، ثم تنهَض فتسير .

وبَعْدَ جُهدٍ شديد قرُبَت من الخيمة وهــى تظُـنُّ أنَّ إسماعيلَ طفلَها قد مات من الجوعِ والعطش ، لأنَّها لم تُرضِعْهُ من زمنٍ طويل .

* * *

ولكنَّها نظرت فدهِشَتْ : هـذا هـو إسمـاعيلُ يحْبُـو ويَبْتَسِم ويُشيرُ لها بيديه ! كيف لم يمُتْ يا أللّه ؟

لم يمتْ لأنَّه وهو يَحْفِرُ بأصابعه فى الرمـال ، نَبَعَـتْ عَــينُ زَمْـزَم ، وفــاضَ منهــا المــاء ، فشــرِبَ منــه و « بطبط » بيديه ورجلَيه .

وارتمتْ هاجَرُ على الماءِ تشربُ وتشرب ، ثم تضُمُّ إسماعيلَ وتُقَبِّلُه وتقول : الحمدُ لله ، الحمدُ لله .

٥

مرَّ جماعةٌ من الأعرابِ بهذا المكانِ . فوقَعَ نظَرُهُمْ على الماءِ يفيضُ من بئرِ زمزم ، وكانوا يعرفونَ أنَّ هذه الجِهَةَ ليسَ بها ماءٌ ولا زَرْع ؛ فاستَغْرَبوا وذهبوا إلى خيمةِ هاجر ، فسألوها : من أينَ جاء هذا الماء ؟ فأخبَرَتهم بالقصة ، فقالوا : هذا طِفلٌ مبارَكٌ سعيد .

ونصبوا خيامهم بجانب الماء ، وبجانب هذا الطفلِ الذى ينبُع على يديه الماء . وسَمِعَ اللّه دعاء سيِّدنا إبراهيم ، فجعلَ قلوبَ هؤلاء الأعرابِ تميلُ إلى إسماعيلَ كما قال : ﴿ واجعلْ أفْئِدَةً من الناسِ تهوِى إليهم ﴾ . وامتدت الخيامُ حولَ خَيمَةِ هاجر ، وأصبحَتْ قريةً كبيرة .

وجاءَ إبراهيمُ بعدَ فترةٍ ليرى ماذا جرى لابنه

وزوجتِه هاجَر . فلمَّا رأى هذه الخيامَ الكثيرةَ لم يَعرِفَ المكان ، وظنَّ أنهُ تاه ، وأرادَ أن يَنصَرِف . ولكنه سألَ واحِدًا من الأعراب ، فأخبَرهُ أن هاجَرَ وإسماعيل هنا ، ودلَّه على خيمتهما .

ولَّما قابَلَهما ضَمَّهما إلى صَدْرِه وبكى ، وعرَفَ أنَّ اللَّه استجابَ دعاءَه ، فصلَّى لله ركعتين فى مكان الكعبة التى يَحُجُّ المسلمون الآن إليها .

ثمَّ عادَ مطمئِنًّا .

٦

اعتادَ إبراهيمُ أن يأتِيَ كل عامٍ مرة إلى هذا المكان ، ليرى ولدَه وزوجَته ، ويصلِّيَ لله فيه .

ومرَّت السنوات ، وصارَ إسماعيلُ فتىً صَبُوحًا جَميلا ، وكان مؤمنًا باللَّه ، لا يَعْبُدُ الأصنام ، بل

يعبُد اللّه ؛ لأنَّ أباهُ علّمَهُ الصلاةَ لله وهو صغير .

وفى ليلةٍ كان أبراهيمُ نائِمًا، فرأَى فى منامِهِ هاتِفًا يقولُ له : إنَّ اللّه يأْمُرُكَ أنْ تذبَحَ ابنَكَ إسماعيل .

ونهَضَ إبراهيمُ من نومِه فقال : يا ربِّ ، إذا كنتَ تريدُ أن أذبح ابنى فإنِّى مُطيع . ثم نامَ ثانيةً فرأى هذا الهاتف يقول له : إنَّ اللّه يأْمُرُكَ أن تذبَحَ إسماعيل . فنهضَ من نومِه وصلى ركعتين وقال :

يا ربِّ ، إذا كنت تريد أن أذبحَ ابنى فإنِّى مُطيع . ثم نام ثالثةً فرأى الهاتفَ يقول له : إنَّ اللّه يأْمُرُك أن تذبَحَ ابنك إسماعيل .

فنهض وهو يقول : الآن لا بد لى أن أطيع .

٧

ذهبَ إبراهيمُ إلى مكان إسماعيل ، واستصحبَه معه إلى خارج الخيام ، وصعد به إلى قمَّة الجبل . وهناك قال له : ﴿ يا بُنَىَّ إنى أَرى فى المنام أنى أذبَحُك . فانْظُرْ ماذا ترى ؟ ﴾ .

﴿ قال : يا أبَتِ افعَلْ ما تُؤْمَر ، ستَجِدُنى إن شاءَ اللَّه من الصَّابِرين ﴾ .

ولم يُرِدْ إبراهيمُ أن يرى ابنهُ السِّكِّين ، فَرَبَط يديه خلْفَه ، ونَكَّس وجهَه إلى الأمام على الصَّخرة ، وأخرَجَ سكينته الماضية ، وتشَجَّع ، وقالَ : يا ربِّ هأنذا أُنَفِّذُ إرادَتَك . ثم نَزَلَت يده بالسكين .

وقبل أن تصِلَ إلى عُنق إسماعيلَ سمِعَ إبراهيمُ هاتفا يقولُ له : ﴿ يا إبراهيم قد صَدَّقْتَ الرؤيا ... ﴾ .

ونظَرَ فإذا كبشٌ عظيمٌ فى يَدَىْ مَلَك ، وهو يقول له : اذبح هذا الكبشَ بدلا من إسماعيل . فلقَد فداهُ اللّه به لِيعِيش .

ولَقَط إبراهيمُ نفسَه ، وفكَّ رِباطَ ابنِه ، وتَسلَّمَ الكبشَ فذَبَحه ؛ وراح يُصلِّى شكرًا لله على فِديتِه .

ومن يومِها ونحن نضحِّى كبشًا فى عيدِ الأضْحَى ، شكرًا لله على نجاةِ إسماعيلَ ، ونُطْعِم لحمَه للمساكين .

٨

بعدَ ذلك أمَرَ اللّه إبراهيمَ وإسماعيلَ ببناء الكعبة .

فراح كلٌّ منهُما يقطع الأحجارَ ويعجن الملاط .

وأخذ البناءُ يرتفع يومًا بعدَ يوم ، وإبراهيمُ وإسماعيلُ فَرِحانِ بتنفيذِ أمْرِ اللّه ، وهما يصلِّيان ويدعوان :

﴿ ربَّنا تَقَبَّلْ منا إنَّك أنت السميعُ العليم . ربَّنا واجْعَلْنا مسلِمَين لك ، ومن ذريَّتِنا أمَّةً مُسلِمَةً لك ﴾ .

وبعدما انتهى البناءُ كُله ، قال اللّه لإبراهيم : هذا بيتى عَرَّفْتُكَ مكانَه ، وسَلَّمتُه إليك لتبنيه ، وأمَرْتُكَ :

﴿ أن لا تُشْرِك بى شيئا ، وطهِّرْ بيتىَ للطَّائِفينَ والقائِمينَ والرُّكَّعِ السُّجُود . وأذِّنْ فى النَّاسِ بالحجِّ يأتوكَ رِجالا وعَلَى كلِّ ضامِرٍ يأتِينَ من كلِّ فَجٍّ عميق ﴾ .

وأذَّنَ إبراهيم فى النَّاسِ بالحج ، فجاءَ الناسُ من كل مكان . وعلَّمَ اللّه إبراهيمَ وإسماعيلَ طريقةَ الحج ، فكانا يُعَلِّمان الناسَ كيف يَحِجُّون .

ومن ذُرِّية إسماعيلَ جاءَ نبيُّنا محمدٌ ﷺ ، ومن ذُرِّية إسحاقَ كان يعقوب ويوسُف وموسَى وداودُ وسليمان .